



تدرك إيران قبل غيرها أن الديمографيا السورية وخصائصها الطائفية ومالاتها السياسية لن تسمح لها ولنظام بشار الأسد بالتحكم بأكثر من مساحة محدودة من الأرض، معرضاً من دون اتفاق سياسي للتهديد الدائم، ومضطربة لاستنفار ساكنيها دوريأً وجعلهم يعيشون في قلعةٍ وفي مشروعٍ حربيٍ يُلغي كلَّ ميزةٍ إستراتيجيةٍ ممكناً، ويستنزف الموارد والمقدرات.

وتدرك إيران قبل غيرهااليوم تحديداً أن نظام الأسد يتربّح ببطءٍ في موضعٍ وبسرعةٍ في موضعٍ آخر، وأنه صار محكوماً في كل الموضع بتأمينها الموارد البشرية له.

ذلك أنه قد أُنهك وفقد بحسب العديد من التقديرات قرابة المائة ألف جندي وضابط ومقاتل "دفاع وطني"، أكثر من نصفهم من المتحدررين من الطائفة العلوية. كما إن الإصابات وهجرةآلاف الشبان من المناطق التي ما زال يسيطر عليها والرشاوي التي تُدفع لتجنب الخدمة العسكرية تقلص على نحو متسارع حجم الكتلة البشرية التي بمقدوره الاستمرار في تعبئتها.

هذا دون الحديث في التداعيات السياسية والاجتماعية لاستمرار النزيف البشري (الطائفي) وربطه من جديد بالديمографيا وتوازناتها.

وتدرك إيران كذلك أن الموارد العسكرية والمالية التي تستمر روسيا بضخها للأسد لم تعد تكفي مع فتح جبهات جديدة أو تحريك جبهات سبق أن هدأت لأشهر طويلة.

كما إن الموجات المتلاحقة من المقاتلين العراقيين والأفغان والباكستانيين الشيعة الذين دفعت وتدفع بهم لم تعد قادرة على أكثر من حماية بعض الجبهات من احتلالات الانهيار الأيدي الكامل (جبهات حلب وبعض جبهات الغوطتين والجنوب السوري)، في حين أن ما بين ثلث ونصف قوات حزب الله صارت فوق الأراضي السورية ولا تستطيع أكثر من السيطرة المتقطعة على المناطق المجاورة للبنان، وما إن تحفل بنصرٍ في مدينة أو تلة أو بلدة حتى تُستأنف المعارك في جوارها فتُعيد نغمة الكلام عن قرب النصر والاحتفال به.

يُضاف إلى هذا، أن سياسة إثمار خسارة مناطق لصالح "داعش" مقابل السعي للاستمataة في القتال في مناطق تتقدم صوبها المعارضة السورية (من كتائب إسلامية إلى مجموعا الجيش الحر)، بهدف إرباك المواقف الإقليمية والدولية وتمكين "داعش" من خلط الأوراق (وتصطدم مباشرةً بالمعارضات)، ما عادت تجدي نفعا، إذ تضاءلت أعداد القائلين في الغرب بضرورة الاختيار بين الأسد و"داعش"، ليس لسببٍ أخلاقي (معدوم في اعتباراتهم أصلاً) بل لموازين قوى تبدلت، بحيث أصبح القول بالمقابلة المذكورة بلاهـ خالصة.

ما الذي انتظرته إيران إذـ وهي ترى ملياراتها التي أنفقت وعشرات ألف العراقيين والأفغان والباكستانيين واللبنانيين الذين أرسلوا للقتل والموت في سوريا يتحولون للدفاع عن أقل من ثلث المساحة السورية ويتحضرن لخسائر إضافية فيها؟

هل هي الأيديولوجيا التي أثرت في التحليل السياسي والعسكري، أم هو غرور القوة الذي يُفضي أحياناً إلى الخسارة؟ أم إن إطالة أمد الحرب تحول مع الوقت إلى هدف بحد ذاته، بما وافق هو السياسة الأمريكية التي لم ترغب في حسم سريع، وما زالت تعرقل كل مسعىً لتسلیح نوعي لمجموعات المعارضة؟

يبدو أن في الجواب أجزاء من كل ما ذكر. ويبدو أيضاً أن البعض في طهران، بعد أن توهם بإمكانية "الجسم" السريع سورياً وتأخر ليكتشف استحالته، صار أخيراً يراهن على "الفتح النووي" في المفاوضات مع الأميركيين ليحتفل بإنجازٍ ويفاوض من بعده على استمرار التعاون مع واشنطن عراقياً مقابل مقاييساتٍ سورياة.

وهذا إن تحقق، فلن يُشير لغير الخسارة المريرة لطهران ولجميع حلفائها في سوريا... المأساة أن ذلك يتم فوق أنقاض تلك البلاد.

العصر

المصادر: